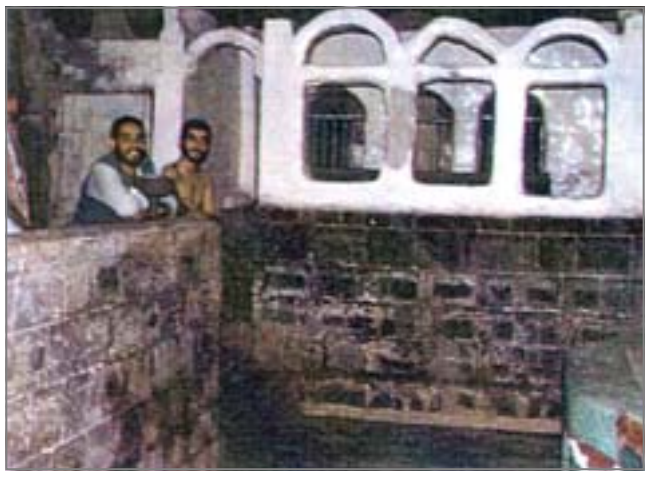

### من كنوز صنعـــاء القـــديمة:

# الحمامات البخارية.. أصالة تحمل بين ثناياها عادات متراكمة منذ القدم

**الحياة الصنعانية تمتلك ميزة تخصصية رائعة تحمل في طياتها ألوان وروائح العبق التاريخي والحضاري والمجتمعي تتجلى في صنعاء القديمة، ومن ضمن تلك الأجواء والمعالم الحمامات البخارية الشعبية التي تنتشر في أحياء وأزقة وحواري صنعاء القديمة وهي من أهم المعالم التراثية الرائعة التي تحمل رونقاً حضارياً جميلاً وخصوصية تراثية فريدة لا يشعر بها إلا من خرج من بوابة الحمام بعد ساعات من التعرق والاسترخاء للحرارة الدافئة التي تولد نوع من النشاط والحيوية والشعور بالهدوء النفسي والجسدي، وللحمامات وقع اجتماعي لدى أوساط سكان صنعاء القديمة فهي ترتبط بتقاليد وعادات مجتمعية محببة لأهل صنعاء القديمة، وعي أيضاً تمثل أهمية من الجانب السياحي بحيث تشكل عامل جذب لسياحة ضمن المعالم الموجودة في صنعاء والتي تتوزع وتتنوع في شوارع وحارات صنعاء القديمة وتسمى باسم الحارات والإحياء التي تقع فيها وتتخللها البيوت والمساجد حاملة سمة صنعانية بحتة..**

استطلاع/ نجلاء الشعوبي

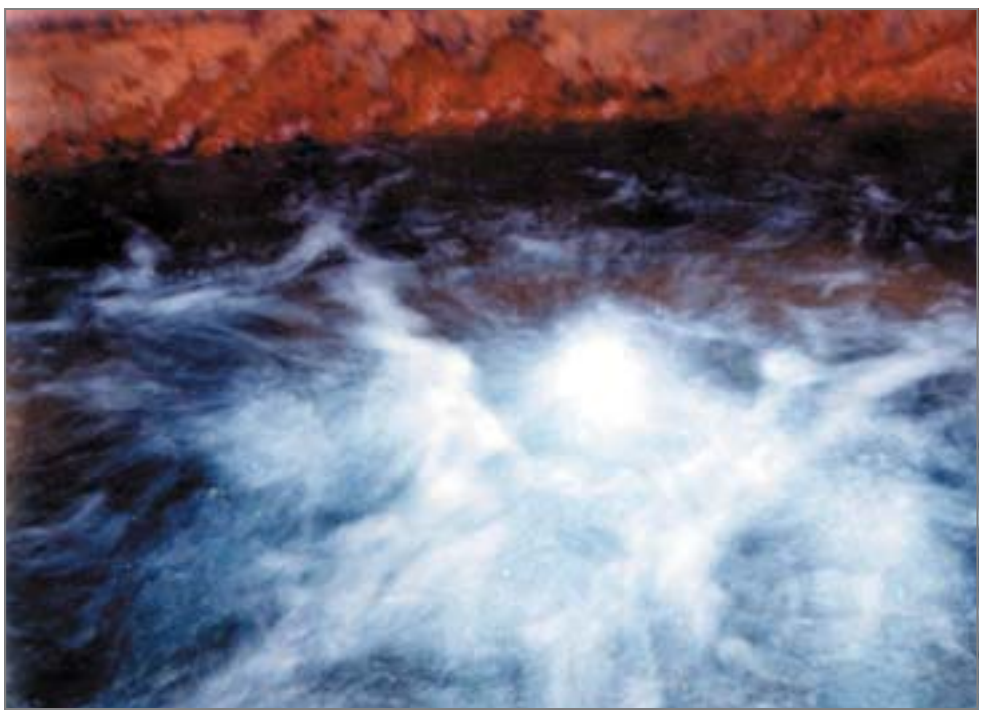

## تحظى باهتمام خاص لدى سكان المدينة التاريخية

### تاريخها

ارتبط تاريخها بالغزو العثماني على اليمن بحيث يوجد اعتقاد على أنه إرثاً تركياً برغم أن الدراسات والاكتشافات الأثرية دللت على وجود مباني لحمامات من قبل الألف الأول قبل الميلاد تعود للملوك السبئيين أي ما قبل وصول الأتراك بالألف السنين، باعتبار الحمامات في صنعاء انتشرت قبل ظهور الإسلام حيث كان اليمنيون يبنونها بجوار معابدهم بغرض الطهارة من أجل العبادة، ولذلك ساد اعتقاد أن القدماء بنو الحمامات في معابد اليهود بعد أن رحلوا، ولا زالت بعض أسمائها تحمل اسم تلك المعابد، لذلك تعد هذه الحمامات من أبرز معالم مدينة صنعاء القديمة بما تحمله من طابع إنساني وحضاري وتاريخي بحيث استمرت في تأدية عملها ودورها المجتمعي منذ حوالي مئات السنين بكل خصائصها ومميزاتها التي لم تضيع مع تطور حركة العصر وظهور بدائل أخرى في المناطق الحديثة إلا أنها ظلت برونقها وعبقها التاريخي الذي خلق نوعاً من الانتماء الحضاري والتاريخي بمجرد أن يدخلها الشخص سواء كان أجنبي أو يمني فهي تحمل سمات التراثية والصنعانية الأصيلة.

### الحمام البخاري الشعبي

ويعتبر الحمام البخاري في معماري جميل بني بشكل هندسي يتناسب مع شكل الفن المعماري بصنعاء القديمة وبطريقة حرفية أصيلة تتناسب مع العمارة الصنعانية التي تتوافق مع مناخ وأجواء صنعاء، فهو بناء منفرد بحد ذاته وبأشكال هندسية ذات ميزة يمنية خاصة ويعتبر بناء الحمامات تحت مستوى الأرض لا يظهر منها إلا السقف المبنى على هيئة قباب "خزائن" تكون بعدد غرف الحمام وتكون لها ثغرات صغيرة لينتقل الضوء عبر قمريات مكونة من الزجاج (البردي) يحول الرؤية لداخل الحمام، ويكون الحمام مبني على أساس متين مميز بالحجر الأسود "البازلت" والحبش الأسود الذي يساعد على اكتساب الحمام حرارته من الفرن الكبير الذي يبنى تحت الحمام، ويعلو الفرن خزان عظيم (الدست) مصنوع من النحاس مبني عليه الطوب الأحمر "الياجور" ينتقل إلى خزانة "المغطس" الذي يتميز بأنه مصدر للمياه الساخنة الكل خزائن الحمام وإلى جانبه حوض عميق آخر للمياه الباردة، ولدخول الحمام يكون بشكل نزول عبر ممر أو سلم حجري ثم المرور من باب مدخل الحمام، حيث توجد غرف الملابس بما يسمى "المغلع" وبركة "الشذروان" التي لم تعد موجودة في أغلب الحمامات في الوقت الحاضر، وتوجد غرفة مستطيلة الحجم تسمى (المللة) وهي مخزن للوقود الذي كان حتى عقد التسبعينيات من القرن الماضي يستخدم فيه فضلات البشر والحيوانات كمادة للوقود التي كان يتم تجميعها من منازل صنعاء القديمة عبر مخارج للحمامات توجد أسفل المنازل، ويتم أخذها إلى ساحة تكون مكشوفة وقريبة من "المللة" وتسمى بالمضحى، ثم يتم إحراقها في الفرن لأنها كانت أقل ثمناً من الحطب إلى جانب أنها تساعد على نظافة المدينة للتخلص من مخلفات المنازل التي لم تكن تتوفر لها خدمة الصرف الصحي آنذاك إلى جانب أنها كانت مصدر للحرارة العالية، وحالياً استبدلته الديزل والغاز كمصدر طاقة أيسر استخداماً، وكان يتم النزول إليه من خلف الحمام عبر درجات للوصول إلى الفرن، أما بقية الخزائن (الغرف) الحمام وعلى رأسها (الصدر) وهي غرفة تتوسط خزانتين أحدهما المغطس التي تكتسب حرارتها من تسرب لهب الفرن تحتها عبر فوهات خاصة، تمتد تحت الأرضية والجدران المصلولة بالحبش وتصاعد دفئها من مخارج محكمة نتيجة قربها من مصدر النيران بحيث يكون ترتيبه الأول بعد المكوث في خزانة المغطس، الذي دائماً يقصده "المتحممون" لكي يكون العرق أكثر غزارة مستفيدين من حرارته العالي، ويكون ذلك قبل الخروج إلى الخزائن الأخرى المعتدلة وتلقى خدمات الحمام على يد عمال الحمام أو ما يسمى "الحمامي" الذي يقوم بالتدليك بالكيس والليف والصابون، بحيث يكون "المتحممون" على شكل حلق حول الأحواض الحجرية الصغيرة التي تتواجد في وزايا الغرف أو الخزائن، والتي تزود المتحممون بالمياه عبر أنابيب ممتدة من المغطس الذي يحتوي على المياه الباردة وتستخدم المياه الباردة عند الاغتسال النهائي الذي يتم في خزانة المغطس قبل الخروج إلى "المخلع" الذي يعتبر مكان الملابس التي تكون بعهدة الحمامي، الذي يتولى التدليك والتكيس مقابل أجر معين، وفي الغالب تكون متناسبة مع إمكانات الناس، وتعتبر مهنة الحمامي مهنة يتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل ويتوارثون الأبناء من الآباء التي كانت تعنى بالسياحة ظل إنشاء وزارة مستقلة للسياحة في العام ٢٠٠٦م بإجراء مسح ميداني للأماكن الأثرية داخل مدينة صنعاء القديمة وكانت الحمامات من أبرز المعالم السياحية والتاريخية التي بلغت هذه الحمامات حسب المسح إلى ثمانية عشر عاماً لعل أشهرها حمام ياسر وحمام المتوكل، وحمام الطواشي، وحمام الميدان، وحمام الجلاء، وحمام السلطان، وحمام شكر، وأهمها حمام الأبهر الذي بناه الوالي العثماني حسن باشا سنة ١٥٩٧م بحيث كانت وجهة نظر القدماء بإنشاء الحمامات في المناطق الباردة لذلك وجدت هذه الحمامات في صنعاء القديمة باعتبارها منطقة باردة وبالذات في فصل الشتاء.

### عادات وطقوس

للمجتمع الصنعاني خصائص وعادات يتميز بها عن غيره من المجتمعات وبصورة حضارية راقية استطاع الإنسان الصنعاني أن يكيف التراث لخدمة تلك العادات الجميلة التي ارتبطت بطقوس الحمام البخاري الذي لا يقتصر على الاستحمام فقط أو توفر المياه الحارة مع الجو البارد في فصل الشتاء، بحيث أن تنظيم الأوقات للحمام ليس بالشيء الفوضوي أو العشوائي وإنما يكون موزع عبر جدولة زمنية معينة يتم تحديد أيام الأسبوع وتقسيم الفترات منها ما تكون خاصة بالرجال وفترات خاصة بالنساء، بحيث يكون لكل منهم أوقات محددة، ويتم توزيع مهام الحمامي على أفراد أسرته سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً وتكون الإدارة لعدد من الأسر يتناوبون فيها الإشراف وتقديم الخدمات قد تكون لمدة شهر أو أسبوع حسب الاتفاق بينهم وبطريقة معتمدة من وزارة الأوقاف باعتبار أن الحمام مباني موقوفة لله تديرها وزارة الأوقاف، وترتبط فترات الذهاب للحمام بالطقوس الصنعانية بحيث تختلف وجهات نظر المتحممين في اختيار الوقت المناسب للاستحمام منها ما قبل الفجر، ومنهم من يفضل بعد صلاة العشاء والأكثر تفضيلاً هو وقت الظهيرة يوم الخميس قبل تناول وجبة الغداء أو بعدها اعتقاداً منهم بأنه يسبب راحة ولذة بعد الخروج من الحمام والاستمتاع بيوم الإجازة وبالذات إن كانوا مجموعة من الأصدقاء والأصحاب الذين يتجمعون بعد الحمام للجلوس في المقيل وجلسات السمر، بعد يوم حافل في الحمام ومليء بلحظات الفرح والمزح والتعرق الشديد في حزائنه الصدر والذي يفضلون فيها أهل صنعاء الرقص والغناء بشكل جماعي وتكون بطريقة عفوية ودون ترتيب مسبق كنوع من الحركة التي تساعد على التعرق وتنشيط الدم، وغالباً ما يصطحب الآباء أولادهم الصبية للاستمتاع بتلك الأجواء واللحظات الاجتماعية والتي تزيد من الترابط بين الناس والتعارف والتقارب، ويحضر المتحمم ملابس نظيفة أو جديدة مع المنشفة، وحاجيات الاستحمام، والبخور للتبخر لذلك يعد الحمامي جمرات النار لتبخير المستحمين، وتكثر هذه العادات بين الرجال في يوم الخميس للتطهير والنظافة لاستقبال يوم الجمعة، وكذلك في شهر رمضان بحيث تكون ليالي الحمام من أروع الليالي التي يعيشها ويعد لها الناس وينتظرونها لما تحمل من جمالية السمات الإنسانية التي تساعد على إيجاد طقوس اجتماعية غاية في الجمال والدفء، وكذلك أيام الأعياد وأيام الأعراس بحيث يتجمع الشباب مع العريس ويقيمون أجمل المشاركات والأغاني والزفات التي تتميز بها صنعاء القديمة وما يعرف بحمام العروس الذي يعتبر من أجمل طقوس العرس، وبالمثل الجانب النسائي تكون بنفس المناسبات والأفراح سواء الأعياد أو الأعراس وبطريق أكثر سلاسة ورقياً بحيث أن الذهاب للحمام الخارجي بالنسبة للنساء أمر ضروري إن لم يكن يومياً على أقل يوم واحد في الأسبوع، وما يميز الأجواء أثناء الاستحمام هو تبادل الناس الكلام الطيب والحسن وزيادة في الدعاة والتمنية بالعافية والنعيم والعودة لمرات ومرات، بحيث يكون الوافدين للحمامات من كل الطبقات الاجتماعية الغنية منها والفقيرة المتعلم والمثقف وفي الأغلب يكونوا من نفس الحي الذي يقع فيه الحمام، وهناك ما يعرف (بالخلوة) وهو استئجار غرف الحمام كاملاً لأشخاص سواء من عائلة واحدة أو مجموعات يحجزونه ليكون لهم فقط ولا يوجد أي غريب، ولا يمنع اصطحاب المأكولات والعصائر التي كانت في الماضي تتواجد من قبل الحمامي ليبيعها لزبائنه مثل شراب الشعير والزبيب البارد، أو اليورت (نوع من الزبادي) أو بالحلويات الصنعانية المعروفة بالرواني والشعوبيات والمحلبية، وبعض المشروبات الغازية بما يمثل طقوس وعادات حميمة بين الناس.

### حمامات صنعاء عند الرازي

ذكرى الرازي في كتاب (تاريخ صنعاء) وجود ١٢ حماماً شعبياً في صنعاء القديمة، اشهرها حمام الحميري وحمام الأبهر وحمام الجلاء والقُزالي وخحمام القوعة وسبأ وياسر الذي كان يعرف باسم يهنعم نسبة لأحد ملوك الحميريين، ومن الحمامات البخارية في صنعاء حمام السلطان: الذي يقع في حي بستان السلطان غربي السائلة بصنعاء القديمة وهو أقدم الحمامات العامة التي تمثل النموذج للموروث التاريخي، واسمي باسم السلطان "طغتكين بن أيوب" الذي توفي في عام ٣٩٥هـ وقدن بمدينة تعز، وقد جدد بنائه الإمام المهدي عبدالله المتوفي ١٨٦٣م.

ومن أشهر الحمامات أيضاً حمام شكر، وهو من الحمامات القديمة التي يرجع تاريخها إلى ٧٧٩هـ - ١٥٩٦م ويعتقد بأنه كان حمام خاص باليهود أو أنه بني على أنقاض معبد يهودي، ويقع شرقي السائلة في الشارع المقابل لقبة المهدي، بالإضافة إلى حمام الطواشي: نسبة لاسم مبعوث من سلطان الهند لمحمد باشا الوالي العثماني باليمن يذكر بأنه أثناء إقامته تم بناء الحمام والمسجد المعروفان باسم الطواشي ويتميز هذا الحمام بفوائده الطبية ومغطسة العميق.

أما حمام الميدان: الذي تم بناءه من قبل الوالي العثماني حسن باشا الوزير سنة ١٩٣٠م حيث بناه على الطراز المعماري اليمني برغم إجراء بعض التعديلات والإضافات التركية، ويرجع تاريخه إلى ماقبل القرن العاشر للهجرة، وكان خاص باليهود في الحي الذين كانوا يسكنون فيه شرقي السائلة قبل نقلهم إلى قاع اليهود أيام حكم الإمام المهدي أحمد بن الحسن ١٩٨١م، وعرف هذا الحي وعرف هذا الحي بالجلاء ومن الحمامات الشهيرة حمام المتوكل الذي يعتبر من الحمامات المشهورة في صنعاء ويقع في منقطة باب السباح شمالي قبة المتوكل، وقد تم ترميمه عام ١٨٥٣م على يد المهدي عبدالله بن المتوكل أحمد ولا زال على حالته كما هو إلى اليوم، ويوجد العديد من الحمامات التي تحمل أسماء صنعاء القديمة مثل حمام سبأ وحمام ياسر وهما من أقدمها، وحمام سوق البقر والبونية وفيش والعرضي وغيرها، وحسب متطلبات السكان تم بناء حمامات شعبية خارج صنعاء القديمة منها حمام النور جنوب باب اليمن، وحمام الجراف، وحمام الخاوي جنوب ور العرضي.

### الأثر الصحي للحمامات

وحسب دراسات طبية فإن للحمامات البخارية الشعبية فائدة طبية في أغلب الأوقات بحيث يؤثر على تدفق الدم إلى سطح الجلد حاملاً الأوكسجين القوي والمواد المغذية، وتتفتح مسام الجلد، ويبدأ الجسم بالتعرق ساعياً لتبريد حرارته، لأن زيادة حرارة الجسم في صدفته الخارجية يؤدي إلى استرخاء العضلات، ويساعد على إزالة المواد السامة من الجلد، لأن الحرارة التدريجية والتدليك بطريقة تقليدية والغسل اللاحق بالماء البارد والفوائد المرجوة من هذه الحمامات تنشيط الدورة الدموية وفتح المسامات الجلدية وإرخاء وبسط العضلات المتشنجة وإزالة الرواسب والسليلوز بالإضافة إلى التخفيف من آلام المفاصل والأمراض والتصلب والروماتيزم، إلا أنه توجد تحذيرات من حمام البخار إذ ينصح المصابين بأمراض القلب أو ارتفاع ضغط الدم أو السكري وينصح بعدم دخول الحمام الساخنة مباشرة الأكل إذ أن انتقال بعيداً عن الأعضاء الداخلية باتجاه الجلد، قد يؤثر على عملية الهضم. ويفضل أن يشرب المستحمون عصائر كثير مثل عصير الطماطم والبرتقال والموز لان الجسم يخسر خلال فقدانه الماء بعضاً من البوتاسيوم، ويجب الحرص على كبار السن من ارتياد الحمامات البخارية لان أغلبهم يعانون من الأمراض السائدة مثل الربو والضائقة التنفسية والهبوط في الدم وغيرها، إلى جانب أنهم عرضة للعدوى والتحسس.

### المشاكل الحالية امام الحمامات

وتتعرض الحمامات الشعبية في الآونه الاخيرة لعدة مشاكل حديثة منها قلة المياه وشحة الوقود لتشغيلها، إلى جانب فقدان الوعي لدى أغلب الناس بالمحافظة على البيئة والنظافة، بحيث أصبحت الحمامات مصدر إزعاج للكثير من مرتديها نتجة الإهمال والاستهتار من قبل الزبائن سوء رجال أو نساء وعدم المحافظة على النظافة بجيث تركت تصور سيء لدى البعض بأن الحمامات البخارية لم تعد بذلك الرونق والجمال التي تبحث عنه النفس للراحة والاستجمال والنظافة، ورغم ذلك تظل الحمامات البخارية بصنعاء القديمة ذات لون حضاري وتراثي جميل يعتز بها المجتمع الصنعاني واليمني كاملاً، فأن كنت في صنعاء القديمة أو زرتها تنسى الاستجمال بأجد حماماتها التراثية والتعرق والاطلاع على عبق التاريخ الذي لن تنساه أبداً.